زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رتزقال اليسوعي

(تابع لما قبل)

ولم تزل تدمر على تلك الحال تنمي وتتقدَّم في سُبُل العمران حتى صارت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعتا معاً بين تجارة اوربّة وآسية اعني مدينتَي بترة وتدمر (١. وكانت القوافل العظيمة التي تقطع البراري تعبر في احدى هاتين العاصمتين فتَنقل منهما البضائع الى رومة وتزيد في حاضرة الممالك اسباب الترَف ورفه العيش (راجع خارتتنا لبيان المسالك التجاريّة في تلك الازمنة ص ٤٩٥) فمن جزيرة العرب كانوا يستخرجون الذهب والجزع والبشب واللُّبان والصَّمغ والصبر وعود الندّ. ويستجلبون من العراق لآلئ البحرين ومن وادي نهر السند وسواحل كورومندل انواع المنسوجات التي يتاجر بها الى يومنا اهل تلك البلاد. ويستحضرون من اقاصي الهند القرنفل والبهار والحرير الصينيّ والنيل والضجاج والفولاذ والعاج والآبنوس. وكانت كلُّ هذه اصناف المتاجر تأتيهم على طريق البرّ. اما ما كان يردهم من الارفاق على طريق البحر فكان دون ذلك. ولا شكَّ انَّ الرومان صرفوا جهدهم في استمالة اهل تدمر بغيةً منهم ان يتناوموا تنفوذ بني ارشك من العجم واستخدموا قوافلها لاعلاء امرهم في تلك الانحاء. ثمَّ ضمُّوا هذه المدينة ملكة الصحراء الى اقاليمهم الشرقية واقاموها منذ بدء النصرانية كرابط بين طرفَي العالم العتيق (٢

---

١) راجع Reinaud : J. A. و Mémoires de l'Acad. des Inscript., t. 24, 1864 J. A. 1883², و *Syrie Centrale, Architecture*, p. 12. Introd. ودي فوكويه 1863¹, ولينورمان «التاريخ القديم»

٢) من المعلوم ان الرومان احسنوا وجه استخدام الامم التي اخضعوا لهم رقابها. مثال ذلك انهم اقاموا بين دمشق وتدمر ٥٢ مركزاً عسكريًّا وبنوا عدَّة حصون على الطريقة الممتدة بين بصرى ودمشق (راجع Duruy : *Histoire* Marquardt :*Römische Staatsverw.* I, p. 414 *des Romains* VI, 80) اما الطريق التي تؤدي من تدمر الى نهر الفرات فلم يغفلوا تحصينها ايضاً (راجع Mommsen : *Römische Geschichte* V, p. 80 . وكل ذلك كما لا يخفى من اقوى الاسباب لتأييد التجارة وعماراتها بتلك البلاد التي تجول فيها قبائل متلصّصة. فلا عجب اذن من ان حركة تجارة رومة كانت تبلغ وحدها الى ما يفوق ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك

وفي اوائل القرن الثاني للمسيح شرعت مدينة تدمر ترتقي الى درجة سامية من التقدم والعمران. فامتلأت خزائنها باموال طائلة لم تعهد بمثلها كثرةً اللهم الّا في زمن ملكتها زينب. يشهد على ذلك كتابة رسميّة ذات لغتين (١ قد اكتشفها الامير الروسي لازارف (Lazarew) فأتحف بها العلماء الاوربيين سنة ١٨٨٢. والكتابة المذكورة من الخطارة بمكان رفيع قد جدَّ في استخراج معانيها المفيدة اساتذة اللغات الشرقية وارباب التواريخ القديمة فبيّنوا ان هذا الاثر المهم يرتقي الى سنة ١٣٧ للمسيح وانهُ اجلّ ممّا سواهُ في ايضاح احوال التجارة القديمة اذ يطلعنا ليس فقط على امور تدمر الخصوصية بل ايضاً على عدّة شؤون مختصّة بتدبير الرومان لاقاليمهم الشرقية

وممّا يتبيّن من تاريخ هذه الكتابة النفيسة هو انها خُطَّت في السنة الاخيرة من مُلك اذريانس اي السنة الثالثة بعد سفره الى تدمر. وبتلك الاثناء اتّخذت لها المدينة اسماً ثانياً اجلالاً لهذا القيصر فدُعيت بهِ Hadriana او Hadrianopolis (٢

---

١) اللغتان المذكورتان هما التدمرية واليونانية وهما الغالبتان على الكتابات المكتشفة في عاصمة زينب. ومن المعلوم ان اليونانية كانت بمنزلة اللغة الرسمية في جميع الاقاليم الشرقيّة المُذعنة لدولة الرومان. امّا لسان اهل تدمر فهو لهجة آرامية على غاية الشبه بالسريانية. وقد زعم السيد سانحو ان لغة تدمر هي اللغة التي نطق بها المسيح لذكرهِ المجد مدّة حياته على الارض - (راجع Z D M G: 1883, p. 564) ولكن لا يخلو هذا القول من بعض المبالغة. فان لهجة تدمر اشبه بلغة اهل الرها منها بلغة السيد المسيح وهي الفلسطينيّة - راجع مقالة مستفيضة للعلامة نولدك بهذا الصدد (Z D M G: 1870, p. 108)

اما الخط التدمري فلا تعرف حقّ المعرفة على اي صورة كان في القرون السابقة للنصرانية لان جميع الكتابات والرسوم المكتشفة في تدمر الى هذه الغاية ينحصر تاريخها بين القرن الاول والقرن الرابع للمسيح ولا يرتفع اقدمها عهداً الى ما فوق السنة الثامنة قبل النصرانية. بيدَ انهُ من المقرَّر ان الامم الآرامية كانت قد اقتبست منذ قديم العهد صورة حروفها من الفينيقيين فلم تزل كل واحدة منها تتصرَّف بها وتتيه اشكالها شيئاً فشيئاً الى ان ظهر في تدمر الخط الذي وُجد منهُ آثار عديدة على بقايا ابنيتها واخربة هياكلها. والخط المذكور قريب الى الخط السيرافي المربّع. فكانهُ رابطٌ بينهُ وبين الخط السطرنجيلي المنتشر في الرها. (راجع جدولنا للخطوط القديمة وجه ٥٣٩)

٢) يعلم القرّاء ان ذلك الملك صرف وقتاً طويلاً لزيارة اقاليم مملكته فقد سافر الى نجيمها وبنى فيها بعض المدن واطلق عليها اسمهُ. فمدينة ادرنه مثلاً وهي من اعمال الروميلي الحالية انما سميت Andrinople اي Hadrianopolis اكراماً للملك المذكور

جدول
لبعض الخطوط الشرقية
كما وجدت في الكتابات القديمة

الخط النسخي	الكوفي	العبراني ٨٠٠-٥٠٠ ب.م	السطرنجيلي ٤١١ ب.م	النبطي ٦٠-١ ب.م	التيماني ٥٠٠ ق.م	الفينيقي ٨٩٠ ق.م
ا	ا	א	א	א	א	א
ب	ب	ב	ב	ב	ב	ב
ج	ج	ג	ג	ג	ג	ג
د ذ	د	ד	ד	ד	ד	ד
ه	ه	ה	ה	ה	ה	ה
و	و	ו	ו	ו	ו	ו
ز	ز	ז	ז	ז	ז	ז
ح خ	ح	ח	ח	ח	ח	ח
ط ظ	ط	ט	ט	ט	ט	ט
ي	ي	י	י	י	י	י
ك	ك	כ	כ	כ	כ	כ
ل	ل	ל	ל	ל	ל	ל
م	م	מ	מ	מ	מ	מ
ن	ن	נ	נ	נ	נ	נ
		ס	ס	ס	ס	ס
ع غ	ع	ע	ע	ע	ע	ע
ف	ف	פ	פ	פ	פ	פ
ص ض	ص	צ	צ	צ	צ	צ
ق	ق	ק	ק	ק	ק	ק
ر	ر	ר	ר	ר	ר	ר
س ش	س	ש	ש	ש	ש	ש
ث ت	ت	ת	ת	ת	ת	ת

امّا مضمون الكتابة فهو تعريف ديواني (جمركي) مطوّل مهّب اصدره مجلس شيوخ تدمر حسماً لفتن وقعت بين التجّار ومأموري الخزانة . وقد زادوا على ذلك بعض البنود لرسم توزيع المياه . وخلاصة ما يُذكر في هذا التعريف بيان ما يُضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجاريّة اجمالاً وافراداً . ويتّضح من انشائها ان الحقوق الاميريّة كانت بالغة . فان كلّ حملة جمل او حمار واردة كانت ام صادرة تُضرب عليها اوّلاً ضريبةٌ ثابتة مبلغها ثلاثة دنانير رومانية (والدينار الروماني يساوي وقتئذٍ نحوًا من ٧٢ سنتيماً) ثم فريضة اخرى على اختلاف قيمة البضائع

وعديدة هي السلع الوارد ذكرها في التعريف المنوّه به . فمنها الرقيق (١ ثم الجوز الارجوانيّة والزيوت العطرية المودعة في قمقم من الرخام الابيض (٢ او في ظروف من جلد المعز . ثمّ زيت الزيتون والشحم والملوحات المتنوّعة ثمّ الجلود ثمّ الثياب والاقمشة (٣ ثم الغلال المختلفة والافاويه والاثمار اليابسة كحب الصنوبر والجوز واللوز (٤ ثم العقاقير ثم الخ (٥ الى غير ذلك من ضروب المواد التجاريّة

امّا وحدة الضرائب المكسيّة فكانت الحملة كما هو جارٍ في يومنا . وهي تنقسم

---

١) كان الرقيق في الازمنة القديمة يُعدّ من جملة البضائع . وقد اتّفقت الديانة مع التمدّن في زماننا لإلغاء بيع الرقيق

٢) ولعلّ القارورة التي كسرتها مريم المجدليّة وافاضت طيبها على رأس سيدنا يسوع المسيح لهُ المجد هي من جملة البضائع المشار اليها هنا في تعريف تدمر

٣) ومن عجيب الامر انهُ يوجد في جملة عاديات المتحف الدي فوكويه حجرة نُقشت في تدمر وحُفر عليها صورة شخص يحمل على رأسه قلنسوة تُشبه الطربوش الشرقي . ويتّضح ايضاً من تمثال للعلّامة تقبّ ان اهالي تدمر كانوا يضعون تحت تلك القلنسوة منديلاً (عراقية) رقيقة خفيفة لتنشيف عرق الرأس (راجع V., p. 76).

٤) راجع Schröder : *Sitzungb. d. Preuss. Acad. d. Wiss.* 1884, p. 19 . ولا شك في ان بلاد الشام لاسيما مدينة بيروت المشهورة منذ القدم بغاباتها الصنوبرية كانت تبعث كميّة وافرة من تلك الافاويه الى بلاد الرومان والفرس

٥) كان هذا الملح يُحمل اما من سواحل بحر الروم او من مالح تدمر . وفي براري الشام مالح كثيرة الى يومنا . فلأهالي منطقيّة الزُّور مثلاً مملحةٌ عظيمة في بُحيرة موقعها بالقرب من الفرات . وقد اخبرنا المؤرخون والسيّاح ان الملح كثير الوجود في انحاء تدمر . ففي وادٍ

الى ثلاثة اقسام حُمْلة الحمار وحملة الجمل وحملة العَجَلة . وكان ثقل الاولى نحو مئة كيلو . والثانية اثقل منها بثلاثة اضعاف . اما الثالثة فيبلغ وزنها نحواً من ١٠٠٠ كيلو (١

قال الماركيز دي ڤوكويه . « وكانت القوافل التي تحمل الى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدوابّ الابل والحمير (٢ واذا وصل التجّار الى حاضرة زينب انزلوا عن ظهر الدوابّ الجوالق والاثقال المختلفة وحمّلوها على العَجلات (κάμαξαι) ليوجّهوها الى جميع انحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية . فاذا بحثتَ عن اسباب تقدُّم تدمر وبلوغها الى ذروة العمران وجدت لذلك سببين الاوّل مرور البضائع بها واقامتها فيها مدةً ودفع المكوس الى خزانة المدينة والثاني شهرة اهالي تدمر دون سواهم بقيادة العيرات في مفاوز الصحاري . فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني المسيح كرفإ عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الامم تُثْغي خزائنها كما جرى في الزمن المتوسط لمدينة البندقيّة سلطانة بحر الروم . . . (٣

بدعى وادي الملح سلحةً واسمة يستخلص اهالي تدمر ملحها ويحملونهُ الى حلب حيث يبادلونهُ بالقمح . (راجع تآليف ابي الفداء وجمنه وبرنوڤيل وغيرهم) وقال قوم ان ذلك الوادي هو المكان الذي انتصر فيهِ الملك داود على جيش السوريين (راجع سفر الملوك الثاني ٨ : ١٣ و Halifax : *Philosophical Iransact. of London*)

١) ان ضيق المكان يمنعنا من الاسهاب في وصف تجارة تدمر مع ما في هذا البحث من واضح الفائدة . فمن رغب في معرفة تفاصيل الامر عليهِ بما ذكرهُ الكتبة الحدثون لاسيما دي ڤوكويه J. A. 188; Z D M G, 188 ونولدك وساخو Z D M G, 1888 وركِنْدرف Z D M G, 1888 . فمن هؤلاء المؤلفين انتبسنا هذه النبذة في تجارة تدمر

٢) وكانت لقوّاد القوافل منزلة رفيعة بين مواطنيهم وهم في عيونهم بثابة قادة الجيوش . ولا غرو لانهُ كان يقتضي على هؤلاء الرؤساء ان يجمعوا مؤونةً كافية لسفر ربما طال اكثر من مدّة شهرين ويجنّدوا رجالاً شاكي السلاح مستعدّين للقتال . واذا شذّوا الرحال كان ينبغي لهم ان يتوقّوا غزوات اهل الوبر بما لديهم من الخبرة بانواع الحيَل . او اذا لم يتمكّنوا من ذلك ان يتجنّبوا مهاجمة تلك القبائل المتلصّصة فيستميلوها ببعض العطايا . او اذا فاجأتهم شرذمة من البدويين أن يردُّوا غارتهم ويشتّتوا شملهم . الى غير ذلك من الامور والحوادث المعروفة عندهم . فلذا كانت وظيفتهم عالية وترى في جملة أخربة تدمر عدّة آثار مخصّصة لذكرهم ومجدهم (راجع V., N° 5)

٣) لا شكّ ان تدمر كانت تحفظ لنفسها قسماً من دخلها السنوي بعد ان تؤدي لرومة الجزية المفروضة عليها

« هذا والكتابة المذكورة جليلة الفائدة في معرفة اخبار تدمر واحوالها الداخلية. ومن قرأها وتأملها فيتخيَّل انَّهُ يحضر تلك الحركة العجيبة من الرجال وقوافل الدوابّ والبضائع ويشاهد عياناً ذلك الاختلاط الغريب من التجار والباعة والنخَّاسين والبزَّازين واصحاب الدواعي والقضاة ويندهش لازدحامهم في رحب شوارع المدينة وساحاتها الواسعة الارجاء. وأروقتها الشاهقة الباهرة التي يتواتر سيَّاح العصر الى نظر آثارها المذهلة

« امَّا وجه التدبير الجاري في ولاية تدمر فلا يظهر باقلّ وضوح من التعريف الذي نحن بصدده. فانهُ يبيّن لنا ان مدينة زينب كان لها في ذلك الزمان مجلس وطني (Senatus) يسنّ السنن ويشرع الشرائع. وهو عبارة عن رئيس وكاتب (١ وعدَّة اعضاء. امَّا السلطة الاجرائية فكانت مسلَّمة الى شيخين (archontes) وديوان متألف من عشرة حكَّام (δεκαπρῶτοι). اما السلطة القضائية فتختصّ ببعض الوكلاء (Syndics) وغيرهم من العمَّال. وزد على كل ذلك افادات تنبئنا عن شأن الشرائع وطريقة وضعها لان التعريف المذكور يشير الى الرسائل التي وجّهها جرمانيقوس وكوربلون (٢ الى بعض مأموري الخزانة في تعيين الفرائض الديوانية وغيرها من امور التجارة. وفي ذكر هذين الرجلين بيان لتاريخ تدمر وضبط عهدهِ لانها توضح لنا ايضاً جلياً ان عاصمة زينب كانت خاضعة للدولة الرومانية منذ ابتداء النصرانية(٣ (ستأتي البقية)

---

١) ومما يتضح من القرائن ان سلطة هذا المجلس كانت عظيمة. الَّا انَّ سنّ الشرائع لم يُفوَّض اليهِ وحده (راجع ركندرف Z D M G, 1888, p. 390)

٢) يعلم القرَّاء ان جرمانيقوس هذا (١٢ ق م – ١٩ ب م) هو الذي تبنَّاهُ طيباريوس قيصر فارسلهُ الى الاقاليم الشرقيَّة لبعض الشؤون فاقتضت عليهِ الاحوال ان يتداخل في امور سورية لمقاومة سوء تصرُّفات پيزون (Pison) الذي كان في ذلك الزمان والياً على بلاد الشام. امَّا كوربلون فكان قائداً في عهد نلوديوس ونيرون وُجّه الى المشرق لمحاربة الفرس فلما انتهى من امرهم رجع الى رومة فلم يلبث الَّا يسيراً من الزمن حتَّى قتلهُ نيرون (٦٧ م)

٣) راجع R. Duval : J. A. 1883, p. 534 و de Vog. : J. A. 1883, p. 180